



إلقاء يوسف في الجب

(001) سورة الفاتحة

الدرس الرابع: شرح الآيات 13 - 19

2020-08-29

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، مع اللقاء الرابع من لقاءات سورة يوسف ومع الآية الثالثة عشرة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

(سورة يوسف: الآية 13)

إخوة يوسف يراودون أباهم عنه لعله يسمح لهم باصطحابه معهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزِينْ وَلَعَلَّ

(سورة يوسف: الآية 12)

يعقوب عليه السلام هنا يبرر لماذا لا يسمح لأبنائه أن يصطحبوا يوسف؟ يبرر قراره بأمرين، الأول: قال: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ)، السبب الثاني: الخوف (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ)، حزن وخوف، الخوف يكون من المستقبل؛ من شيء سيحدث، وعنده حزن في داخله على فراق يوسف.

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقُّ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ

(سورة غافر: الآية 75)

لكن عندما يكون الفرح بطاعة الله وبمنهج الله يكون محموداً، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ

(سورة الرعد: الآية 36)



النهى عن الحزن في القرآن الكريم
(قُلْ يَعْزِلُ اللَّهُ وَيَرْحَمُهُ قِيْدُكَ فَلْيَفْرَحُوا) قالوا: فضل الله ورحمته هو الإسلام وأن جعلنا من أهل الإسلام، فنحن نفرح بشيء ولا نفرح بشيء، أما الحزن فلم يأت في القرآن إلا منهياً عنه؛ لأن القلب إذا امتلأ حزناً لم يعد قادراً على أن يمتلئ بالسكينة والأمن والطمأنينة وهذه كلها معان مطلوبة، إلا أن الحزن مشروع، إذ لا بد منه، فما معنى (لا تحزن)؟ معنى (لا تحزن) أنه لا ينبغي أن يأخذ بك الحزن مأخذاً يصل بك إلى أن يغتم قلبك به ولا تستطيع قادراً على القيام بحق الله وبحق الناس من حولك، إلا أن كل إنسان يحزن، والنبي صلى الله عليه وسلم قال:

{ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ }

(رواه البخاري)

الحزن شعور مشروع، لم يؤمر به لكن لا بد أن يقع؛ لأن المشكلات في الدنيا كثيرة والعوائق كثيرة والصوارف كثيرة فيحزن القلب.

خوف يعقوب عليه السلام على سيدنا يوسف

الآن الخوف (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) يعقوب عليه السلام رغم علمه بأن إخوة يوسف يكيدون ليوسف والدليل في بداية السورة لما قصَّ عليه يوسف الرؤيا التي رآها قال له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا

(سورة يوسف: الآية 5)



لا تتهم الناس بغير بينة

أي يتأمرن عليكم، إذاً هو يعلم من أبنائه أن عندهم الكيد وعندهم المؤامرة ومع ذلك لم يتهمهم في نياتهم فقال: (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) فيعقوب عليه السلام ما يتبادر إلى ذهنه من مخاوف من إخوة يوسف لم ينج لهم بها، وهذا من أدب الأنبياء وهذا من أدب التربية ومن أدب الآباء، لا تتهم الناس بغير بينة، ولا تتهمهم بما جعلهم يزيدون من مكرهم وحقدهم، تعامل مع الناس على أنهم لا يريدون سوءاً إلا إن كان لديك دليل واضح صارخ قوي، وبذلك تشجعهم على أن يُبعدوا عنهم السوء (وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) لم يقل سيأكله الذئب تقصيراً منكم، ولم يقل سيأكله الذئب لأنكم تريدون ذلك، وإنما قال: (وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) تغفلون عنه بأشياكم أو بمتاعكم بما تفعولونه وتجهدون به من تعب وكد لتحصيل رزقكم (يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)، فإذا يعقوب عليه السلام يبرر عدم رغبته باصطحاب يوسف مع إخوته يشيئين اثنين: الحزن على فراق يوسف والخوف من أن يأكله الذئب، وليس المقصود الخوف من أن يأكله الذئب على وجه التحديد، ولكن يبدو أن هذه الحالة كانت متكررة، فوجه الخوف إليها، لكنه يخاف أن يحصل مكروه ليوسف حال انشغال إخوته عن رعايته والقيام بشأنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِدَا لَخَاسِرُونَ

(سورة يوسف: الآية 14)

كيف يستطيع الذئب أن ينال منه ونحن جماعة قوية! نحن عشرة رجال أشداء، وقلنا في اللقاء الماضي: إن العصابة هي المجموعة من ثلاثة إلى عشرة، مجموعة من الرجال الأقوياء ننفذ وننفذ، نأتي بالنفع لأنفسنا وندفع السوء عنها، فنحن عصابة، لسنا شخصاً أو شخصين، نحن عصابة ندفع الشر عنه وعن أنفسنا (إِنَّا إِدَا لَخَاسِرُونَ) إن حصل ذلك فهذه خسارة عظيمة أن يكون هناك عشرة رجال أشداء ولا يستطيعون بعد ذلك أن يحموا أخاهم الصغير.

مواقفة سيدنا يعقوب على ذهاب يوسف عليه السلام مع إخوته

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

(سورة يوسف: الآية 15)

الآن أقفل المشهد، ما سيأتي يبين أن والدهم وافق بعد ذلك، ووافق على مضمض بين الإخراج والخشية على مشاعرهم والخوف من أن يظنوا أن والدهم يخاف على يوسف منهم، فأراد أن يبرّد قلوبهم وأعطاهم يوسف، الآن لو نظرت في الأمر تقول: كيف سمح لهم وهو يخاف كل هذا الخوف؟ الجواب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَيَقْضِيَنَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا

(سورة الأنفال: الآية 44)



مشيئة الله نافذة

مشيئة الله نافذة، هو نبي ويوحى إليه وكان من الممكن أن يوحى إليه الله ألا ترسل معهم يوسف فهم يتآمرون عليه ويكيدون له، وكان من الممكن أن يعلمه الله تعالى بوحى بأنهم قد أجمعوا أمرهم أن يجعلوه في غيابة الجب، لكن الله تعالى أراد أن يحصل الذي حصل، سلم الأمر لله عز وجل، هذا من باب التسليم، فإذا أراد الله إنقاذ أمر أخذ من كل ذي لب لله، مع الله عز وجل لا يوجد إنسان يقول: أنا عاقل، عقلي معي، قوتي معي، عشيرتي معي، أبداً، إذا أراد الله إنقاذ أمر فلا بد أن يحصل هذا الأمر، قد يقول قائل: لماذا أرسله؟ لو كنت مكانه لما أرسلته مثلاً، يعلم منهم أنهم يكيدون ويخاف عليه ويحزنه وتوقع السوء وتوقع المكر وتوقع المكيدة ومع كل ذلك أرسله؛ الجواب: لأن الله تعالى أراد أن يرسله.

(قَلَمًا دَهَبًا بِهٖ وَأَجْمَعُوا) أجمعوا تدلُّ على أنه كان هناك مشاورات، الآن عدنا إلى المشهد السابق، لما تركناهم في المشهد السابق كانوا بين أمرين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا

(سورة يوسف: الآية 9)

وكان هناك رأي من أحدهم بأن يُلقَى في غيابة الجب، ولم نعرف على ماذا استقر الرأي، فجاء المشهد هذا ليكشف النتيجة التي توصلوا إليها (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ) يعني أجمعوا أمرهم (أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) فيغيب عن أعينهم ويغيب عن أعين والده ويُنسى في هذا (الْجُبِّ) (الْجُبِّ) هو البئر القريب من سطح الأرض الذي له فوهة كبيرة.

تعريف الوحي وأنواعه



الوحي هو الإعلام بخفاء

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) إلى يوسف، والوحي: هو الإعلام بخفاء من غير أن يشعر الآخرون، قد توحى إلى إنسان بشيء فتعلمه بما تريد منه من غير أن يشعر الجالسون، فإذا كان الأب في مجلس وعنده بعض الصيوف قد يوحى إلى ابنه بأن يذهب ويحضر الضيافة دون أن يشعر الجالسين بهذا، فهذا اسمه وحي، الإعلام بخفاء يسمى وحيًا، والوحي إذا جاء إلى الأنبياء فهو الوحي المعروف شرعاً وهو ما يعلمه الله تعالى لأتباعه ولرسله عن طريق ملكٍ من الملائكة الموكلين بذلك، لكن قد يكون الوحي بمعنى الإلهام، فأم موسى مثلاً ليست نبياً ولا رسولا، ومن شروط النبوة والرسالة المذكورة حتى يقوم النبي والرسول بأعباء الرسالة وما يواجهه فيها، فهي ليست رسولا وليست نبياً، ومع ذلك أوحى إليها الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ

(سورة القصص: الآية 7)

فهنا الوحي بمعنى الإلهام، ألقى في نفسها، أعلمها بخفاء أن ترضع ابنها (فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ) وكُلُّ منا قد يوحى إليه لا على أنه نبي معاذ الله، لكن على أنه مؤمنٌ مقربٌ من الله له كرامةٌ عند الله فيقول: لا أدري لم ألهمني الله أن أغادر هذا المكان فلما غادرته وقع الحادث فيه! ألهمت، هذا وحي الإلهام، وقد يأتي الوحي بمعنى الغريزة، وحي الغريزة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

(سورة النحل: الآية 68)



وحي الغريزة عند النحل

فالنحل وحيها وحي غريزة بمعنى أنَّ الله عزَّ وجلَّ أودع فيها هذا الأمر، فلو جئت إلى نحلة وأجريت معها مقابلةً وسألتها: لماذا تتخذين من الجبال بيوتاً؟ ولماذا تصنعين العسل؟ وكيف تصنعين هذا الشكل السداسي؟ لما عرفت جواباً! فهي تسير بغريزتها، سخرها الله لنا لتصنع لنا العسل، فهذا وحي الغريزة، فهناك وحي نبوة وهناك وحي إلهام وهناك وحي غريزة، وكل أنواع الوحي هي إعلامٌ بخفاء؛ أن تُعلم شيئاً من حيث لا يدري الآخرون؛ الإعلام بخفاء.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) أوحى الله إلى يوسف، وهذا وحي النبوة لأن يوسف نبي ولو كان غلاماً صغيراً وهذه من إرهاصات النبوة المبكرة، الإرهاصات أي العلامات قبل أن يُبعث إلى الناس، (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ) إلى يوسف (لَنُثَبِّتَهُمْ بِأَقْرَبِهِمْ هَذَا) هم الآن أجمعوا أمرهم ليجعلوه (فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ) يتفقون على ذلك، والله عزَّ وجلَّ يُطمئن نبيه بوحي مباشرٍ إليه: يا يوسف لا تُتَيْسَّرَ بما يصنعون، أن يا يوسف هذا الذي يجري يجري بعلمي وبحكمتي وبقدري وهو خيرٌ لك وسوف تنجو منه وسوف يأتي يومٌ تُعرَّفهم بفعلتهم هذه وأنت تعرفهم وهم لا يعرفونك، وجاء هذا اليوم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ

(سورة يوسف: الآية 58)

هذا أوحى إلى يوسف وهم يُجمعون أمرهم (أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ) وهو غلامٌ صغيرٌ لا يقوى على شيءٍ إلا أنَّ الله تعالى في هذه اللحظات العصبية القاسية أوحى إليه بهذا الوحي الذي ثبته وقوّى من عزيمته، (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) سيأتي يومٌ تعرفهم وهم لا يعرفونك، لا يشعرون بك، وقد تكون جملة (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) متعلقة ب (وَأَوْحَيْنَا) يعني (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ .. وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) يعني لما كانوا يجمعون أمرهم على ذلك كان الله تعالى يوحى إليه هذا الوحي كما قلنا هو إعلامٌ بخفاء من غير أن يشعر إخوته بما يجري من إحياء الله له، فهما معنيان، والمعنيان صحيحان، إما أن نقول: وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بالوحي الذي أوحى إليه، أو: وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ عندما سَيُثَبِّتُهُم يوسف بأمرهم، عندما سيقول لهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا قَعَلْتُمْ يُّوسُفَ

(سورة يوسف: الآية 89)

(لَتَسْبِطَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) النبأ يأتي للخبر العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ

(سورة النبأ: الآية 1-2)

(لَتَسْبِطَنَّهُمْ) أي لتخبرنهم بخيرٍ مهمٍّ جداً، فالنبأ أعظم من الخبر، لذلك يقال: وكالات الأنباء ونشرات الأخبار، فنشرات الأخبار تأخذ من وكالات الأنباء.

كذب أولاد يعقوب عليه السلام على أبيهم عند عودتهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ

(سورة يوسف: الآية 16)



في الليل سترٌ للكاذب

أغلق المشهد، والقصة عبارة عن مشاهد، وكل مشهد يُغلق وما بعده يُفسّر ما الذي حصل، الآن هم جعلوه (في عَيَاتِ الْجُبِّ) وهنا الله تعالى لم يذكر التفاصيل، فلا داع لها، هذا من الإيجاز والبلاغة، أودعوه (في عَيَاتِ الْجُبِّ) وتناقشوا في الأمر وفعلوا ما فعلوا في نهارهم، الآن (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)، لماذا جاؤوه ليلاً؟ لأن الليل أستر للكاذب فوجه الكاذب يفضحه، الكاذب تقاسيم وجهه تفضحه، ولحن قوله يفضحه، وطريقة صياغة الخبر تفضحه، تبارك الله ما جعل للكاذب قوة على أن يسبك كذبه مهما كان بارعاً فيها فلا بد أن تُخترق كذبه في شيء ما، وهذا من عظيم خلق الله تعالى أن الإنسان لمّا يكذب يكون مرتاباً: يتفاوت الناس، هناك من الناس من لا يعرف الكذب فإذا بدأ في الكذب قيل له: يا فلان أنت كالأطفال كذبتك واضحة، وهناك من يصوغها ويحبكها لكن هناك من الخبراء من يكشفه، فالكاذب يُعرف بتقاسيم وجهه ويُعرف بلحن قوله، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ

(سورة محمد: الآية 30)

فتهجّ صوته وطريقة خطابه وتصنّع بكائه كلّ ذلك يكشف كذبه، هم الآن تستروا بالليل، الليل يستر، فتغيب وجوههم أمام أبيهم فيصبحون أكثر قدرة على المواربة لذلك (جاءوا أباهم عشاءً) حتى لا يفتضح أمرهم (وجاءوا أباهم عشاءً يبيكون) يتصنعون البكاء، وليست الثائخة التكلّي كالثائخة المستأجرة، كما قيل في المثل، بالمناسبة: النواح حرام

{ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ائْتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّغْنُ فِي النَّسَبِ، وَالتَّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ }

(رواه مسلم)



حكم البكاء والنواح

فالنياحة حرام، لكن البكاء ليس حراماً، والنواح يعني لطم الخدود وشق الجيوب والصوت العالي، فكان العرب أحياناً يأتون بالثائخة التي تنوح في المآتم يستأجرونها يدفعون لها مالا حتى تأتي وتصرخ فقالوا: وليست الثائخة التكلّي كالثائخة المستأجرة، فالثائخة التي فقدت ابنها تنوح من قلبها الممتلئ بالحزن والأسى على الفراق، أما المستأجرة فمهما فعلت فلا تستطيع أن تعبر عن الحزن لأنه لا يوجد حزن في الأصل فهي قد استؤجرت، فهؤلاء يتباكون وبكاؤهم مفضوح (وجاءوا أباهم عشاءً يبيكون) قالوا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالُوا يَا أَبَاتَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ

(سورة يوسف: الآية 17)

الآن بدؤوا أيضاً بالاستعطاف من جديد (يا أبااتا) وهذا استعطاف ليذكروه بما بينه وبينهم من أواصر القرى والحب فأنت أب لنا.

حكم اللعب في الإسلام

(يا أبااتا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) والاستباق يكون في العدو والركض، ويكون في الخيل، ويكون في النبل والسهام، كله يسمى استباقاً، نلعب لعبة فيها سباق من يسبق الآخر. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

{ أنها كانت مع رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي سَقَرٍ، قَالَتْ: فَسَابَقْتُهُ فُسَبِقْتُهُ عَلَى رَجُلِي، فَلَمَّا خَمَلْتُ اللَّحْمَ؛ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ:

هَذِهِ بَيْتُكَ السَّقَرَةُ }

(أخرجه أبو داود بسند صحيح)



اللعب المباح مسموح

(هذه بَيْلُكَ السَّبْقُ) يعني واحدة بواحدة صلى الله عليه وسلم، فكان يسابق زوجته، واليوم ربما يأنف كثير من الرجال أن يسابق زوجته أو يسابق حتى أولاده، لكن المؤمن يسابق بلعب يتحرك، واللعب المباح مسموح ما دام لا يلهي عن طاعة ولا يشغل عن ذكر، فما دام هذا اللعب لا يشغلك عن طاعة من الطاعات فقد يصح هذا اللعب عبادة إذا أدخلت به السرور على قلبك، أو قلب زوجتك، أو قلب أولادك، فالاستيقاق مشروع شرعاً، وهذا يُستأنس به في مشروعية السباق، يذكره بعض الفقهاء في مشروعية السباق (إِنَّا دَهْنًا تَسْتَيْقُ) لأن هذا لو لم يكن مشروعاً لما باحوا به لأبيهم النبي (إِنَّا دَهْنًا تَسْتَيْقُ) إما عدواً أو بالثبيل والسهام.

كشف كذب أولاد يعقوب عليه السلام



الخلل في شرط ذهاب يوسف مع إخوته

(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا) وهذا خللٌ عظيم في الشرط الذي اشترطوه على أنفسهم، فهم اشترطوا أن يحمو يوسف فإذا بهم قد أخذوه ليحمي أمتعتهم، هم لما قالوا: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا) (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) فإذا بهم يقولون: (وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا) الولد الصغير تركتموه ليحفظ لكم أمتعتكم وأنتم تلعبون؟! أنتم ذهبتُم ليلعب هو ولتقوموا أنتم برعايته! وهذا بداية كذبهم.

(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ) يعقوب عليه السلام أعطاهم الحجة من غير أن يشعر، لما قال لهم: (أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ) فهم من جهلهم اصطادوا الكلمة ووجدوا العذر المناسب ولو كان عندهم فكر؛ لكن سبحانه الله الكاذب يُفصح بكذبه كما قلنا، ولو كان عندهم تفكير لوجدوا كذبة أخرى لقالوا: سقط أو كذا، لكن اصطادوا الكذبة كما هي أكله الذنب كما قال لهم، هو أوحى لهم بالعذر من غير أن يشعر وهذا يفضحهم.

قالوا: (وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا) مؤمن أي مصدق (وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) نعرف أنك لن تصدقنا، هم متضععون أمام أنفسهم، أخفوا وجوههم بسواد الليل لكن القصة كلها غير مسبوكه بطريقة تقنع طفلاً، اصطادهم للكذبة ثم إخلالهم بالعهد وترك أخيه الصغير الذي لا يقوى على شيء وهم العصبة تركوه عند متاعهم وذهبوا ثم أكله الذنب!

ذكر قميص سيدنا يوسف

قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۖ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

(سورة يوسف: الآية 18)

قميص يوسف تكرر ثلاث مرات في قصة يوسف، فأصبح مثلاً، قميص يوسف يذكر في عدة مواطن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

(سورة يوسف: الآية 18)

- والموطن الثاني:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ

(سورة يوسف: الآية 28)

- والموطن الثالث لما قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا

(سورة يوسف: الآية 93)

فالقميص مرّةً مملوء بالدم، ومرّةً يرد بصر يعقوب عليه السلام، ومرّةً يكشف خيانة امرأة العزيز، هذا قميص يوسف.



وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

هنا المرّة الأولى: قال: (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) قبل في بعض الكتب: إنهم ذبحوا معرّةً ولطخوا القميص بدمها، وورد في بعض الروايات أنهم لم يمزقوا القميص فقال لهم أبوهم: أكل لحمه وترك قميصه! (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) لم يقل: بدم كاذب، وهل يكذب الدم؟ هم الكاذبون، والدم قد يأتي مجازاً الدم كاذب، لكن لم يقل: بدم كاذب، قال: (بدّم كذب) الكذب هو المصدر، (بدّم كذب) كما تقول: فلان عادل، وقد تقول: فلان عدل، فالعدل مصدر لكن لشدة عدله أصبح هو العدل، وكما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولم يقل: نجسون، وهنا لم يقل: بدم كاذب، وإنما الدم أصبح هو الكذب لشدة خيانتهم ولشدة كذبهم.

النفس وأنواعها

(قَالَ تَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً)، (سَوَّلَتْ) أي يسرت وسهلت لهم، فالنفس الأمارّة بالسوء تسوّل لصاحبها السيء، يعني سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً سيئاً وليس أَمْراً حسناً، لكن حذف الصفة لدلالة الحال عليها، كلنا أدرك أن الأمر المسؤول به سيء، فلم يقل: بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً سيئاً، بل قال: (أَمْراً) وهذا الأمر سيء حتماً، فهو بقوة فراسته وبالقرائن التي بين يديه مما قالوه ومما جاؤوا بهذا الدم الكذب الواضح أن القميص ملطخ بالدم وليس دم يوسف، كل هذه القرائن مع فراسة يعقوب أدرك أن ابنه لم يأكله الذئب فقال: (تَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً) والنفس أيها الكرام! أمارّة بالسوء، وهناك نفسٌ لوامّة، وهناك نفسٌ مطمئنّة، في القرآن الكريم عندنا: نفسٌ أمارّة بالسوء، ومذكورة في سورة يوسف لما قالت امرأة العزيز:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ

(سورة يوسف: الآية 53)

أَمَّارَةٌ: أي كثيرة الأمر بالسوء، طبيعتها تأمر صاحبها بالسوء، تأمره ألا يقوم لصلاة الفجر، تأمره ألا يكفّ لسانه عن المعاييب، تأمره ألا يساعد فلاناً، تأمره ألا يفعل معروفاً، أمارّة بالسوء، كثيرة الأمر، لكن الإنسان يجب عليه أن يكثر من لومها فتصبح نفساً لوامّة، أقسم الله تعالى بها في قرآنه فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا أُقْسِمُ بِتَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ

(سورة القيامة: الآية 1-2)



مادامت نفسك تلومك فانت بخير

فهي نفسٌ محمودّة لأنها ما إن يقع صاحبها بالمتكر حتى تلومه، لم فعلت ذلك؟ لم عصبت ربك؟ لم أسأت إلى فلان؟ لم؟ مادامت نفسك تلومك فأنت بخير ولو كنا نقع في بعض الآثام والمعاصي لكن ما دمت صاحب نفسٍ لوامّةً فهنيئاً لك، لأن النفس اللوامّة لا بد أن تصل بك يوماً إلى النفس المطمئنة التي اطمأنت إلى أمر الله وإلى وعد الله فاستقامت على أمره، هذه أهم ثلاثة نفوس في القرآن، أمارّة بالسوء، لوامّة، ثم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي

(سورة الفجر: الآية 27-28-29-30)

الصبر الجميل

(قَصْبُ جَمِيلٍ) سأصبر صبراً جميلاً، بَمَ قابل مصيبتَه فوراً؟ بالصبر الجميل، لذلك يقول النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

{ إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى }

(رواه البخاري)

مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ يَا صَبْرِي قَالَتْ: إِنَّكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي) فلما مضى (قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فجاءت إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعترفت، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى }



الصبر على ما يحزنك ولا تريد

كل الناس يصبرون بعد حين وهل نملك غير الصبر؟ يقول لك: صبرت، وهو تكلم بكلام لا يليق وفعل ما يحلو له ثم يقول لك: صبرت! هذا الصبر الإجباري القهري ليس صبراً، أما الصبر عندما تتلقى أمراً لا تريده ويدخل إلى قلبك الحزن ثم تقول: يا رب لك الحمد، فيعقوب عليه السلام من فقد هنا؟ فقد يوسف الحبيب الذي يتوسم فيه أن يحمل إرث إبراهيم عليه السلام، يوسف الذي رأى (أَخَذَ عِشْرَ كَوْكَبًا) يوسف الذي يحزنه أن يذهبوا به ساعة ثم هو الآن لا يجده فلم يقم إليهم ولا ضربهم ولا خرج عن طوره ولا سب ولا شتم إنما قال: (سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا ۖ قَصِيرٌ جَمِيلٌ) ما الصبر الجميل؟ وهل هناك صبر غير جميل؟ نعم، هناك صبر لكنه غير جميل يصبر ويشكو الأمر لغير الله، لكن صبره جميل لأنه قال بعد حين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

(سورة يوسف: الآية 86)

فالصبر الجميل ألا تشكو الأمر إلا لله، أما أن يدعى الصبر وكلما جاءه أحد يكلمه بالمسألة من أولها إلى آخرها، ولا مانع للمؤمن أن يحدث مؤمناً بمصيبته لعله يخفف عنه لكن أن يملأ الدنيا بالحديث وهو صابر فهذا صبر ليس جميلاً، الصبر الجميل أن تكون شكواك لخالقك فقط لمن يملك أمرك هذا صبر جميل وفي القرآن الكريم: صَبْرٌ جَمِيلٌ، وهجرٌ جميلٌ، وصفٌ جميلٌ، ثلاثة من الأخلاق العالية وصفة بالجميل، فقيل: الصبر الجميل صبرٌ بلا شكوى إلا لله، والهجر الجميل هجرٌ بلا أذى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَهْجُرُهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا

والصفح الجميل صفحٌ بلا عتاب، فقد يصفح إنسان عن آخر ثم يعاتبه، يقول له: سامحتك وصفححت عنك لكن هل يعقل أن تفعل بي ذلك! اجعل صفحك جميلاً، اجعل صفحك جميلاً ولا تعاتبه على ما مضى، وهناك هجئ مع الأذى، يهجره ولا يكلمه لأنه مثلاً بعيدٌ عنه، ولكن يؤذيه بلسانه ويتحدث عنه، فهذا ليس هجراً جميلاً، وهناك صبرٌ غير جميل عندما يكون صبراً مع الشكوى والمذلة للناس، فهنا قال: (قَصَبْتُ جَمِيلٌ) سأصبر صبراً جميلاً.

(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)، (تَصِفُونَ) أي تصفون الكذب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا خَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ

(سورة النحل: الآية 116)

الاستعانة بالله تعالى
(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) ونحن في كُلِّ صلاةٍ نقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا كَتَبْنَا وَإِنَّا كَتَبْنَا

(سورة الفاتحة: الآية 5)



الاستعانة بالله أصلٌ في ديننا

فالاستعانة بالله تعالى أصلٌ في ديننا (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) تستعين على هذا الصبر الجميل بالله تعالى، من الذي يصبرك؟ الله، من الذي يجعل صبرك جميلاً فلا تشكو إلا لخالقك؟ الله، فقال: (قَصَبْتُ جَمِيلٌ) وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) أستعين بالله تعالى على هذا الكذب الذي كذبت به وهذه القصة الملفقة التي جنتم بها والتي لا تقنع طفلاً، لكن يعقوب سلم أمره لخالقه ومولاه، وكان يعقوب عليه السلام يعلم بقرارة نفسه أن أمر الله تعالى نافذ وأن الله قد أراد هذا الأمر وقد سخر له هؤلاء وهذا كما قلنا سابقاً لا يعفيهم من المسؤولية، كون الله تعالى أراد ما سيكون لا يعفي إخوة يوسف من مسؤوليتهم عن فعلتهم النكراء بيوسف لكن الأمور تجري بأمر الله تعالى فهو جلّ جلاله يقدر الخير ويقدر الشر ومن يأتي على يديه الخير طوبى له ومن يأتي على يده الشر فالويل له، والإنسان هو الذي اختار أن يفعل الخير أو أن يفعل الشر ولكن الأمور كلها تجري بالمقادير وهذا يريح النفس.

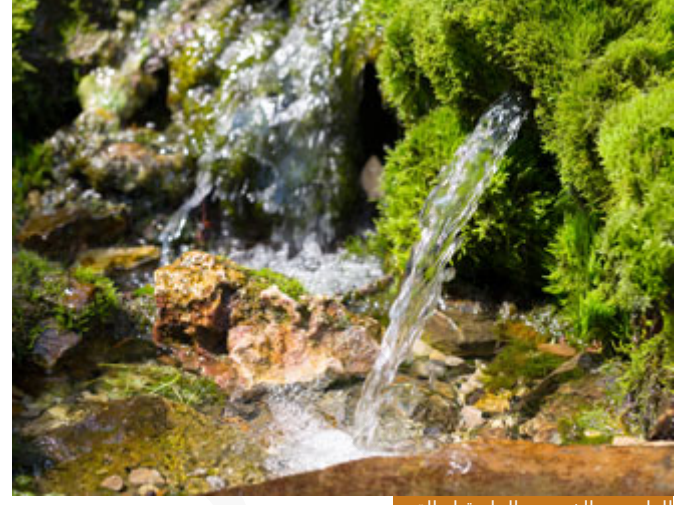
نجاه يوسف عليه السلام من الجب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غَلَامٌ ۖ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

(سورة يوسف: الآية 19)

الآن عدنا للبئر الذي وضع فيه، وهذا المشهد كان مع أبيهم يعقوب عليه السلام وانتهى المشهد، عدنا إلى المكان الذي ترك فيه يوسف في (عَيَاتِبِ الْجُبِّ)، (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) والسيارة مثل جَوَّالَةٍ يعني الذين يجولون، البائعة الجواله، وهناك سيارة ممن يكترون السبر، (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ) قوم يسبرون كثيراً، (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) والوارد هو الذي يستطلع منابع الماء، قال الشاعر الجاهلي في معرض الفخر:



الوارد هو الذي يرد الماء قبل القوم

(فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) الوارد هو الذي يرد الماء قبل القوم ليستطلع الماء، وهل هو صالح للشرب فيأتي بهم إليه فهو الوارد (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) لينظر (فَأَدْلَى دَلْوَهُ) هنا المشهد القرآني لا يحدثك كيف تعلق يوسف ربما بالدلو أو صرخ واستعاث واستنجد الله أعلم (فَأَدْلَى دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ) بشرى عظيمة جاء بطلب الماء فوجد غلاماً والغلام في هذا العهد يباع وبشترى، فهو ثروة، كانه وجد عقداً من اللؤلؤ في هذا الزمن، لأن هذا غلام يباع وبشترى غلام صغير، ويوسف عليه السلام قد أوتي شطر الحسن (يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غَلَامٌ) استبشر برؤية هذا الغلام.

(وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً) جعلوه معهم على أنه بضاعة، لم يعد كإنسان له حاجاته بل أصبح بضاعةً تباع وتُشترى.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) لأن الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(سورة يوسف: الآية 21)

وقد قلنا قبل ذلك: إن هذه القصة عبرتها عندما يقول تعالى: (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) فهم يكيدون ويتآمرون ويتحركون ولكن كلُّ هذه الحركة إنما تتم بأمر الله وينقديه وبما يريد ولما فيه الخير ونشر الخير (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ).

والحمد لله رب العالمين